

الشعر الأعجمي على الأندلسي في عصم المرابطين

وسقوط سرقطة في يد النصارى سنة ١٢٥٢هـ / ١١١٨م
مع أربع وثائق جديدة

تأليف
الدكتور حسين مؤنس

١٤١٣ هـ - ١٩٩٤ م

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي: شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

”الشعر الأعلى“ الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للككتور حسين مؤنس

عثر على الوثائق التي أنشرها في ذيل هذا البحث
مصدر الوثائق في مخطوطين عربيين داني عليهما زميلي وصديقي
عبد العزيز الأهواني في مكتبة « ديسان لورنزو » بالأسكوريال ، يحمل
أولهما رقم ٤٨٨ والثاني رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية . وراجعت ما كتب عنهما
في فهرس المخطوطات العربية الذي وضعه الراهب الأوغسطيني اللباني
« ميخائيل الفزيري » بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

CASIRI: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*, Madrid,
1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذي وضعه « ديرنبورج » فلم أجد فيهما إلا أن هذين
المخطوطين يضمنان نماذج من النثر الفنى الأندلسي في عهدي المرابطين
والموحدين ^(١) .

وعندما أخذت في دراسة هذه « النماذج » ، تبينت أنها تضم عدداً
طلياً من « صور » وثائق هامة تتصل بتاريخ « المرابطين » و « الموحدين »
في الأندلس ، وتبينت بعد قليل أن المادة التاريخية في الكثير منها جيدة
جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف الى معلوماتنا طائفة طيبة

(١) راجع فهرس الفزيري المشار إليه تحت رقمي DXVI (ص ١٥١) ورقم
DXXXV بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقم المذكورين أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغربيتين المجيدتين اللتين
لأنجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس
معرفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية
تقلاً صحيحاً أميناً ، لأننا نجد في صفحة ١٢٠ من المخطوط الأول شهادة
بصحة هذه الصور صادرة عن عالين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيى
ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدي المعروف بابن الشلوين أو الشلويني .
ونص العبارة هو :

« قرأت أبعاض جميع ما تقيد فوق هذا ، ومنها ما أكلته ، وسمعت
أبعاض ذلك ، ومنها ما كل سماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ أبي على عمر بن محمد
ابن عمر بن عبد الله الأزدي الشهير بابن الشلوين ، رضى الله عنه ، وأجاز لي
ما فاتني منها في روايته ، وناولني السفر بكليته ، وأباح لي ما في روايته منه ،
والإسناد إليه فيه ، والله ينفعه بذلك » .

« قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى
ابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ،
وفقه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلحاً على نبيه الكريم وعلى آله » .
« وذلك كله في عقب شهر ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة » .
« المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدي في التاريخ » .
ومما يدل على أن النسخة التي بين أيدينا هي التي راجعها « ابن الشلوين »
بنفسه أن اسمه وارد في السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك في ذاته
أمر عظيم القيمة ^(١) .

ثم إننا سنلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق
تأييداً تاماً .

(١) يظهر من هذه العبارة أن مخطوطتنا أصلية وأنها ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ .
مما يزيد في قيمتها . وهي مكتوبة بخط مغربي غير القراءة في مواضع كثيرة ، ولكنها
في حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب وثائق هذين المخطوطين ودراستها تمهيداً لنشرها ، ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تتفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت في الصفحات التالية أربع وثائق تتعلق بموضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التي انتصر فيها المرابطون على جيوش الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة في شوال سنة ٥٠١هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨م و (الثاني) وقوع سرقسطة في أيدي ألفونس الأول ملك أرغون وقشتالة وليون في ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . واستغاثة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البديعية ، فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لابد من مقدمة تاريخية عن المرابطين في الأندلس وتاريخ « الثغر الأعلى » الأندلسي في عصرهم حتى تتضح الاشارات التاريخية الواردة في الوثائق ، وحتى يكون من الممكن الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتني كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث هي نماذج للنثر الأندلسي في صورة من أزهى صوره ، ولا غرابة في ذلك ، فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلسة وابن أبي الحصان يعينون ذروة من ذرى البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم في هذا الباب إلا قلائل في المشرق والمغرب .

* * *

يعتبر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) المرابطون في الأندلس عصر اليقظة الأخيرة في تاريخ الأندلس الاسلامي ، عصر الصحوة الذي سبق عصور الاضمحلال المتصل التي تبدأ من أول القرن السابع الهجري ، وهي صحوة قصيرة عنيفة سبقتها إرهابات أنبأت عن عود الاسلام الأندلسي إلى النصر والعزة بعد ذلك الانكماش المستمر الذي عاياه طوال القرن الخامس الهجري عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية .

ومن هذه الارهابات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاقة » الذي أحرزته القوات المرابطية الأندلسية في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إذ انا بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الغزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثير مما فقدته المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الإسلامية من مجرى « الوادي الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تنوشها وتحاول استعادتها ، وبدأ بوضوح أن جبهة الاسلام في « شرق الأندلس » لن تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيّد القميّطور على بلنسية (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيو ١٠٩٤)^(١) ويهدد نواحي سرقسطة ومُرسية وبلاد الشرق كلها . وعند ما توفي يوسف بن تاشفين في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ترك لابنه عليّ بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله : « وملك جميع بلاد القسيلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملك جميع بلاد الأندلس شرقا وغربا ، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة ، وخُطب له على ألني منبر ونيف وثلاثمائة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملك قد توطد والأمور قد استقامت »^(٢).

وقد أساء « دوزي » الحكم على عليّ بن يوسف كما أساء الحكم على المرابطين عامة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها الهوى أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب »^(٣) وما زال يلح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لاعلم ولا أدب ولا رفاة

(١) تحدد الروايات الإسلامية تواريخ مختلفة لسقوط هذا البلد ؛ ولكن تحديد اس الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقها : الحلة السيرة ، ص ١٨٩ ؛ وانظر مناقشة

دوزي للتواريخ : Dozy, Recherches, II. pp. 1-X VIII sqq

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة نورنبيرج ١٨٤٣) ص ١٠٢

(٣) راجع رأي عبد الواحد المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »

(ملبة القاهرة ١٩١٤) صفحات : ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦

ولارخاء^(١) . مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسي الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بطائفة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفي أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجذ ، وابن القبطونية ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون^(٢) ، ومروان بن أبي الخصال الذي يكاد يكون أعظم ناثر عرفه الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندي^(٣) ، ويكفي أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا الوليد بن رشد^(٤) ، وأبا العلاء بن زهر^(٥) ، كانا من أصحاب علي وجلسائه وقد أشرف الثاني منهما على تربية ابنه تميم هو كان أشبه بالوصي عليه أثناء إقامته في قرطبة نائباً عن أبيه في حكم الأندلس^(٦) .

وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تضيق معها آثار انتصار « الزلافة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد في استنقاذها من آثار الفوضى التي شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير المتعزى الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حري بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد ، فعول على خلهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدى رجال من المرابطين^(٧) . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، واستفتى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

(١) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2^e éd.) p 155

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ٩٤

(٣) ابن الأثير ، الحلة السراء (طبعة دوزي) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول (طبعة

علوش ١٩٣٦) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ ، والمقرئ ، نفح الطيب (طبعة أوروبا) ج ١ ص ٢٨٧

وانظر المناقشات الطويلة التي يوردها صاحب الحلال الموشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة في المخطوط الذي أخذت منه الوثائق التي أنشرها هنا ، ص ١٧٤

من المخطوط رقم ٤٨٩

(٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم^(١) بل يذهب ابن خلكان وابن خلدون إلى أنه كتب إلى فقهاء المشرق — وفي مقدمتهم الغزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتوه بضرورة تخليص الأندلس من أمرائها هؤلاء. ويفهم من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف ابن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طامعاً فيها من أول الأمر^(٢)، ولكن الغالب أن فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبتت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيتهم وتقصيرهم في معاونه جيوشه أثناء النضال مع النصارى، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصارى على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة^(٣)، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحذر، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري أصحاب غرناطة، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية. ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركاً قائده «سير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما يدهم من البلاد والحصون، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور، فلم يفته عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود^(٤)، وعاد ما بقي من الأندلس الإسلامي موحداً من جديد بيد الأمير المرابطي سير بن أبي بكر الذي اتخذ قرطبة مركز أعماله^(٥)، وهكذا عاد هذا البلد إلى مركزه الممتاز بين البلاد بعد أن فقدته طوال عصر ملوك الطوائف.

(١) ابن خلدون، المعبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) انظر: المراكشي، المعجب، ص ٧٤

(٣) ابن خلدون، المعبر، ج ٦ ص ١٨٧، Dozy, *Musulmans d'Espagne*: III, 139 وراجع التفاصيل التي يوردها ليفي برونسفال عن علاقات المعتد بن عباد مع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة في مقال:

La "Mora Zaida" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, ds: Hespéris XVIII, 1934, pp. 1-8.

(٤) المراكشي، المعجب، ص ٧٥ وما يليها. وابن خلدون، المعبر، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلال الموشية، ص ٥٩

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذى وضعه يوسف بن تاشفين للحكومة الأندلس ، والمعلومات التى لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ، وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشؤون المدنية بيد الأندلسيين كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع ^(١) ، وكان النائب عن يوسف بن تاشفين فى حكومة الأندلس قائد عسكري هو سير بن أبى بكر ، ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ^(٢) ، وكان التفاته كله موجهاً الى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل المتنوية ، وسيكون لبعضهم من أمثال أبى عبد الله بن الحاج وأبى زكريا بن واسينو وجرور الحشمى ، وأبى عبد الله مزدلى شأن عظيم فى الحروب مع النصارى فى الأندلس ، ولم تكن القوة العسكرية التى وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ، فقد قدرها صاحب « الحلل الموشية » بسبعة عشر ألف فارس « موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف وبقرطبة ألف فارس ، وفى المشرق أربعة آلاف فارس ، وباقى العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة فى الحصون المصاوبة للعدو » ^(٣) وليس من المعقول أن تكون هذه هى عدة الجيش المرابطى المقيم فى الأندلس ، لأننا نرى عشرات الألوف من جنودهم فى كل ناحية ، والمنطقى أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجالة . وقد كسب المرابطون برجالتهم المنظمة القوية كل انتصاراتهم الكبرى فى الأندلس ^(٤) . ولسنا نفهم السر فى أن يوسف اختص ناحية إشبيلية بسبعة آلاف مع أن الخطر عليها

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلل الموشية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٧

(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، وفى النص أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلاً فى : الروض المطار فى خبر الإقطار لابن عبد المنعم الحيرى (طبعة لى بروفسال ، القاهرة) مادة زلاقة ، وهو الأصل الذى أخذ عنه المقرئ وعبد الواحد المراكشى . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة أقبليش فى وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسيما ، أما الخطر الحقيقي فكان على قرطبة وإقليمها ، أى ناحية الوسط ، ومع ذلك فخصمتها من الحامية لم تزد على ألف فارس ، وكان الشرق في ذلك الحين أكثر النواحي استهدافا للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس فحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك في أنه كانت ترسل إليها عند اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلي من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن تاشفين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبى جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فما الذى حدا به إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفتقر عن المعتمد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس فى كثير ؟ لى نجيب على هذا السؤال ينبغى أن نلقى نظرة على الحالة العامة فى هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الإسلامية الذى كان يعرف « بالشعر الأعلى » .

الشعر الأعلى وسرقسطة عند ما انفرط عقد الخلافة الأموية على رأس المائة فى عصر المرابطين الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيى ، وكان فارساً جلدأ ذا خبرة ودراية بأمور هذا الشعر المتطرف من بلاد المسلمين^(١) ، وكانت بينه وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات وذو موصولة ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان فى نفس الوقت سيداً متبوعاً للكثيرين من أشرف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضى والحصون بهذه النواحي الجبلية الوعرة^(٢) ، فلما مات فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيى بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سنن أبيه ، واجتهد بنفسه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث (طبعة لى بروفنسال)
 من ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام (طبعة لى بروفنسال سنة ١٩٣٤)
 من ٢٢٦ — ٢٢٧ ، وانظر الخريطة المرفقة لتعرف حدود الشعر الأعلى .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذي ساد الأندلس كلها في تلك السنوات ، فسلمت له بلاده ، وأقام في دعة لا يكاد ملوك أرغون يدبرون له شرا حتى مات سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م^(١) ، وخلفه ابنه المنذر فأقام في الامارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، فبدأ سلطان المسلمين في هذا الركن القصي يتزعزع ، وبدأت أطماع أمراء أرغون وأكناد برشلونة تنتجه نحو سرقسطة وأقليمها ، وكان هذا الإقليم يضم حوض «إبره» الأعلى كله ، وفيه من الحصون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أيوب» و«درؤقة» و«وشقة» و«بربشتر» و«مدينة سالم» و«لوجرونيو» Logroño و«صورية» Soria و«ترويل» Teruel و«إفراغة» Fraga^(٢) وكان بهذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً ، وكان أهل هذا الاقليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون في ظل هذه الأسرة في رخاء وأمن .

وكان من بين أتباع «بنى يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع في أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليمنية ، هي أسرة «بنى هود» وكانت تملك مدينتي «لاردة» و«تطيلة» Tudela ، وكان يمثلها في ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود ، فلم يكده يلمح خلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثب من حصنه ودخلها بأتباعه وحاز الاقليم كله ، وتلقب «بالمستعين بالله» على نحو ما كان يفعل معاصروه من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)^(٣) ، وأصبحت «دولة بنى هود» في سرقسطة والثغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانبا ، واستطاعت أن تحول بين الامارات النصرانية في هذا الركن الشمالى الشرقى وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث في «الموسطة» (إقليم طليطلة) و«العرب» (إقليم بطليوس وماردة) .

(١) انظر التفاصيل التي يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى مع جيرانهما من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ في :

Dozy : *Recherches*, I, pp. XXXIV sqq.

(٢) الحلال الموشية ، ص ٦٠ وقد أتمت هذه القائمة من كتاب :

PRIETO VIVES, *Los Reyes de Taifas* (Madrid, 1926), p. 46.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعماق الأعلام ،

ولم يكن الخطر النصراني على الأندلس الاسلامي من هذه بنو هود الناحية بعيداً ولا قليلاً في ذلك الحين ، فقد كانت حدود إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً ، وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ الأندلس أمير قوى طامع في زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الداهية ، فكانت تصاقبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هي : كوثنية « قطلونية » يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بيرنجير الثاني (١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) وملكه أرغون . وكان يحكمها راميرو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٣ م) وكان لا يكف عن اجتياح حدود سرقسطة وانتهاب ما يصل اليه من أرضها ، وبين هاتين المملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين هما باليارس (Pallars) وشرطانية (Cerdania) وسيف صاحبهما إرمنجول الثالث (Ermengol III) ورامن (Ramon) الى جوار قطلونية وأرغون فيما يلي من الاحداث . أما في الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بحدود مملكة قسرة (Navarra) وكان ملكها غرسية الثاني (Garcia II) (١٠٣٥ - ١٠٥٤ م) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون (Leon) أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدّها خطراً على المسلمين في ذلك الحين ، وسيكون للملك إذ ذاك فرناندو الأول (١٠٣٥ - ١٠٦٥ م) وأولاده من بعده حصّة الأسد في تراث الأندلس الاسلامي ، وكان من حسن حظ إمارة سرقسطة وبلاد شرق الأندلس كلها أن كل جهود ملوك ليون ستوجه نحو إمارتي بطليوس وطليلة فترة طويلة من الزمان ^(١) .

ومن ثم كان العبء الملقى على أكتاف بني هود ثقيلًا لا يكاد ينهض به إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا ليستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم النصراني موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا ببلادهم من الشر المحيق . بل سزاهم يقفون موقف الحياد عند ما يستولى ألفونس السادس ملك ليون على مملكة طليطة (سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٥ م)

(١) BALLELLEROS: *Historia de España* (1927), II, pp. 295-301.

وسيقفون الى جانب « السيد القنيطور » عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها
ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل .

وعند ما توفي أبوأيوب سليمان المستهين في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م استهدفت
إمارة سرقسنة لخطر جسيم ، إذ تقاسم بلادها أبناءه الأربعة ، وجعل كل منهم
ناحيته إمارة مستقلة ، فانفرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بعماد الدولة
المقتدر بالله . واستقل أبو عمر يوسف بلاردة وتلقب بعماد الدولة المظفر ، وأخذ
محمد قلعة أيوب وتلقب بعرض الدولة ، أما الرابع ، المنذر ، فقد اكتفى بلقب الحاجب
وفاز بتسطيطه وتسميته المراجع لب^(١) . وهي كلمة أندلسية معربة عن «لوبيو»
(lubo) الاسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحتربون فيما بينهم ، واستمروا
على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقتدر بالله أن يستولى على ما كان بيد
أخويه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخاه يوسف حتى غلبه على بلاده
في أواخر أيامه حوالى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة
على يديه ، بل استطاع أن يضيف اليها أراضى جديدة انتزعها من جيرانه
النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م)
ودانية (سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٧٥ م) . وحاز جزءا من كورة طركونة (Tarragona)
وأطرافا من بنبلونة (Pamplona) ونواحي من لقنت (Alicante) وبلنسية
وكان أصحابها في حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم^(٢) .

وأحمد المقتدر بالله هذا هو أقوى أمراء بني هود وأوسعهم في تاريخ
فترة الطوائف ذكرآ بعد المعتمد بن عباد ، وليس الى الشك سبيل في أنه كان
أقدرهم على مغالبة شدائد هذه الفترة القاسية ، وأمهرهم في النجاة ببلده وعرشه ،
وأجرأهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

(١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال
الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخرج برييتو ييبس هذه التواريخ من التّيات ، راجع بحته القيم عن ملوك

الطوائف : Prieto Vives : Los Reyes de Taifas, pp. 47-49.

في أيامه درة الاندلس الاسلامي ، فقد ابتنى فيها « قصر الجعفرية » الباقي الى اليوم وقصر الذهب الذي قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفي أحد المقتدر بين سنتي ٤٧٤ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ و ١٠٨٢ م فانقسمت إمارة سرقسطة من جديد ، واقتسمها ابنه يوسف والمنذر ، فأما يوسف فقد تلقب بالحاجب المؤتمن ، واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الامارة كله ، وانفرد الثاني -- المنذر -- بطرطوشة ودانية والجزء الساحلي من الامارة ، وتلقب بالحاجب عماد الدولة ^(١) ، واستمرت الحرب بين الأخوين ، ولم يخمد أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، فقد نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود ، ومضى يحارب عمه المنذر ، وجعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصراني . وفي عهد يوسف هذا أقبل السيد القنيطور إلى سرقسطة لاجئاً الى أميرها بعد أن نفاه القوننس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد الى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه ، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بير بيجر الثاني صاحب قطلونية هزيمة قاسية عند « المنارة » (Almenara) وقد وقع الكونت في أسر ابن هود في هذه الموقعة ، وكان لها أثر بعيد في تاريخ « السيّد » وشرق الأندلس كله بعد ذلك . وقد أقام السيد في سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر في نفسه وتكوينه ^(٢) ، ويبدو أن لقب « السيّد » الذي لزمه بعد ذلك طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنه كان يقود جنوداً من المسلمين ، فكانوا ينادونه « بباسيدى » ، فلما عاد الى خدمة القوننس السادس لزمته هذه التسمية ، وصار جنده النصراني ينادونه بلفظي (mio cid) .

وفي هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطمع في سرقسطة وبلاطها ، ولولا يقظة يوسف وأخيه وأهلهما للدفاع عن بلادها في كل لحظة لضاعت الامارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

LEVI PROVENÇAL, *Le Côté de l'histoire dans l'Islam d'Occident* (٢)
(Paris 1948), pp. 170 sqq.

وقشتالة ، ويكنى أن نذكر حادثاً صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار : فقد كان أبو جعفر أحمد — الذي تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه ، وأودعه أحد حصون روضة (Ruoda) ، وأقام الرجل سجيناً في ذلك الحصن بعد وفاة أخيه ، فلما كانت أيام ابني أخيه هذا — يوسف وأحمد — فر من سجنه في أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م ، وذهب يحتج بالقبول في الفونس السادس ملك قشتالة ، ومات عنده بعد قليل ، فزعم الفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبه الذي تغلب عليه ، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمه رامير ونحور وروطة ، وكاد البادي يقع في أيديهم ، لولا أن يوسف المؤمن وحليفه القنبيطور وضعاً للفونس ورجاله كميناً في خانق ضيق على الطريق ، فلم يكادوا يتوسطونه حتى انتهات عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينبج الفونس نفسه إلا بصعوبة ^(١) ، وأراد « السيد » أن يبرئ نفسه من تهمة الاشتراك في هذه المؤامرة ، فرجع إلى الفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته ، وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة الفونس وتطلعه لما في أيدي المسلمين ، ويدلنا على يقظة يوسف المؤمن وشدة حذره ، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب ومواقع خصب ، بل كان كفاح مؤامرات وحيل ، ولوقد غفت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لاجتماع الفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م ، دون كبير مشقة .

وتوفي يوسف المؤمن في ذلك العام ، وصار الأمر في سرقسطة لابنه أحمد على ما قلناه ، فتلقب بالمستعين ، وضاعف الهمة في الحفاظ على ما بيده ، ذلك أن أطاع الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيما جاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة . فعول على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها ، واستعد أحمد المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب « بلنسية » ، واستمر الحصار حيناً ، وتخرج مركز البلد ومن فيه ،

PRIETO VIERA, *Los Reyes de Taifas*, p. 48.

(١)

R. MENÉZES PIDAL : *La España del Cid* (1929), II, p. 371.

ولم يتقدم إلا نزول المرابطين الأندلس^(١) في ذلك الحين ، فرفع ألفونس
الخصار وأسرع الى بلده لتحصينها . ثم كانت وقعة « الزلاقة » Sagrajas
في رجب ٤٧٩ هـ / سبتمبر ١٠٨٦ م وانهمزم ألفونس تلك الهزيمة القاصمة
التي أبعدت خطره عن البلاد الاسلامية الأندلسية كلها الى حين^(٢).

فلما استقر يوسف بن تاشفين في الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضونه
ويقدمون له المساعدات والألطف ، كان أحمد المستعين أكثرهم تقرباً اليه . وعرف
يوسف حرج مركز المستعين وصعوبة موقفه أمام ملوك النصارى ، وانعقدت
بينهما أواصر صداقة سيكون لها أثر بعيد في مستقبل « سرقسطة » ، وحينما
سأت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم
واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ،
ليؤكد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ولاءه وإخلاصه لقضية الاسلام
في الجزيرة ، ولينبهه أنه يرى من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش
المرابطين ، وكتب اليه كتاباً ، وردّ عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا
المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وثقته من إخلاصه للمسلمين ،
ويؤمّن على بلاده ويعده بالمعونة^(٣) . ولا نزاع في أن يوسف بن تاشفين قدّر
خطورة الدور الذي كان أمراء « سرقسطة » يقومون به في تلك الفترة الحافلة
بالخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحائل بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد
المسلمين في شرق الأندلس^(٤) ، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصارى

(١) أخبار النور الأعلى في هذه الفترة موجزة بإيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ،
فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع النصرانية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة
في ذلك الحين :

Primera Crónica General (éd. M. Pidal, 1906) p. 538 à sqq.
Annales Toledanos Primeros (*España Sagrada*, XXIII, p. 385 à sqq.
Historia Roderici apud : M. Pidal : *España del Cid*, op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠

Annales Complutenses en España Sagrada XXIII, p. 314.

(٣) ورد نص هذين الكتابين في صورتين لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا في ألفاظ

قليلة : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، الحلل الموشية ، ص ٦٠

(٤) هكذا قال المستعين بن هود في كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نص

كتابيه وإنما وردت خلاصته فقط في المرجعين المشار إليهما في الهامش السابق .

وعلاقات الولاء التي كانت تربطهم بهم بين الحين والحين . لم يحالفوا أحداً منهم على المسلمين ، ولم يقفوا من جيوش المرابطين موقف الحيانة والتقاعس الذي وقفته إشبيلية وغرناطة ومالقة أثناء الصراع العنيف الذي دار بينهم وبين النصاري على حصن « لبيط Alcebo » بعد موقعة الزلاقة بقليل ^(١) .

وفي أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف انتهز شانجه راميرو (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إمارة سرقسطة هجوماً عنيفاً وانتزع منها منشون (Monzon) سنة ٤٨١ أو ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، ثم تقدم فحاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فمضى ابنه « بدرو » الأول يلح عليها بالخصار حتى استولى عليها في ذي حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر سنة ١٠٩٦ . وقد دافع أحمد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى ^(٢) ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcoraz) التي انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنف الصراع الذي كان محتدماً خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مدائن سرقسطة والشعر الأعلى ، قال : « وفي سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضيقوا بها ، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقى الفريقان ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس الى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، ورفع ما كان به من المال ثم كر الى مقامه ، وأبلى الى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام . فقُتد من الناس ما يناهز اثني عشر ألفاً ، والتمس أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة » ^(٣) وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بحليفه ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

BALLESTROS : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى في ذلك الحين وهو غرسية أوردونيذ
(García Ordóñez) صاحب « نخرة Najera »^(١).

واستشهد أحمد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حاسمة
دارت بينه وبين أرغون أيضاً^(٢) وهي معركة فالتييرا (Valtierra)
(رجب ٥٠٣ / يناير ١١١٠)، وبوفاته فقدت سر قسطة آخر أمرائها الكبار
الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التي أحدثت بالأندلس الاسلامي كله
في ذلك الحين ، ذلك أن ابنه الذي خلفه وهو عماد الدولة عبد الملك لم يكن
من طرازه ولا من طراز جده المقتدر، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر
من اعتماد أبيه ، فنفرت رعيته منه ، وتخرج مركزه داخل بلاده . ومما زاد
في حرج مركزه اقتراب المرابطين من بلاده وميل أهل سر قسطة الى الدخول
في طاعتهم أملا في أن يقوموا بحمايتهم من جيرانهم النصارى^(٣).

وقد استطردنا عن تتبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إمارة علي بن يوسف ،
واستقصينا أخبار سر قسطة حتى اقترابهم منها : فلنعد الآن إليهم لتتبع جهودهم
حتى نصل إلى تدخلهم الصريح في شئون سر قسطة . قلنا إن علي بن يوسف
لم يكد يستقر على عرش الدولة المرابطية حتى عبر الى الأندلس في نفس العام
الذي تولى فيه (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) . وكانت ظروف المالك والامارات
النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيماً خلال السنوات الأولى من القرن الثاني عشر
الميلادي (السادس الهجري) : توفي ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد
موقعة الزلاقة بعام واحد، وخلفته ابنته الدونيا أورাকা (D^a Urraca) فانحسر
الخطر المستمر الذي كان يهدد المسلمين من هذه الناحية ، وتوفي كذلك الكونت
هنري البرغوني (Enrique de Borgona) صاحب كونتية البرتغال ، الذي كان
يهدد غرب الأندلس كله وخلفته ابنته الدونيا تيريزا (D^a Teresa) ، ولم يعد
الخطر يهدد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشمالية الشرقية حيث ظلت الحرب

PREF. VIVERS : *Los Reyes de Taifas*, p. 49 (١)

P. VIVERS, *Los Reyes de Taifas*, p. 49 ٢٠٢ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٠٢

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٠٢

مستعمرة يقودها أميران نصرانيان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) صاحب أرغون ورامون بيرنجير الثالث (Ramon Berenger III) صاحب قطلونية^(١) ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتركوا الجهة الشمالية الغربية التي شغلهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قواهم إلى شرق الأندلس الذي كانت الاخطار تهدده كما رأينا .

أقام علي بن يوسف أخاه « أنا الطاهر تيمنا » حاكما للأندلس . وجعل مركزه غرناطة^(٢) ، ولا نستطيع القول بأنه نقل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قرطبة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أوفق للمرابطين ، لأن معظم أهلها كانوا من بربر إفريقية ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقية مصدر الأمداد .

وعجل « تيم » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل موقعة أقليميس^(٣) أن يدخل أرضها أن يقضى على الحامية النصرانية التي كانت تحتل حصن أقليميس (أو أقليمج Uclés) شرق طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسرفسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه

(١) Francisco Codera : *La Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España* (Madrid 1899), p. 7.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣

(٣) هذه الواقعة هي موضوع الوثيقة الأولى التي نشرها هنا ، وهذه هي المراجع غير العربية التي نتحدث عنها :

Cronicon de Burgos en Esp. Sagr. XXIII p. 310.

Annales Toledanos en Esp. Sagr. XIII. p. 327

CODERA : *Decadencia...*, 10-11

BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II. pp. 232-233

ولم يذكرها من المراجع العربية المنشورة بالتفصيل إلا روض القرطاس : ص ١٠٣ — ١٠٤ والوثيقة التي نشرها تعطينا عنها تفاصيل دافية . وقد ذكر عبدالمجيد الخيري عن أقليميس أنها قاعدة كُور شَنْتَبَرِيَّةٍ وذكر أن فيها جامع كبير . (الروض المعطار : ص ٢٨) وهي الآن في مديرية قونقة (Guenca) وتابعة لمركز تارانكون Tarancón .

cf: LÉVI-PROVENCAL *La Peninsule Ibérique au moyen-âge d'après Kitab ur-Rand al-mi'elār* (Leiden 1938) p. 35

الناحية؛ فحاصرها المرابطون ، وكان ألفونسو السادس يعلق عليها أهمية كبرى ، فأخذ الأهبة للمسير لدفاع المرابطين عنها ، وكانوا قد قضوا على الكثير من جندها وأجأوا البقية الى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه ، فيكون مواجهها لقيم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجأهم » كما يقول ابن أبي زرع : وكانت الوقعة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصاري ثلاثة وعشرون ألفاً ، وتقرر الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصاري هلكوا فيها ، ولهذا يسمونها « موقعة الأكناد السبعة (Batalla de los Siete Condes) : وقد هلك فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك ، وأراد تميم ترك البلد للنصارى والانصراف عنه لولا أن قواد لمتونة من المرابطين أصروا على الاستمرار في القتال ، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزماً تاماً (١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨ م) ، وقد قتل في هذه المعركة « شانجة » بن ألفونس وولي عهده ، وقد هاضمت هذا الكارثة نفسه ، فتوفي بعدها بنيف وعام (٣ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ شوال ٥٠٢ هـ)^(١) .

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر ، وأقبلوا في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م — ١١١٠ م ، يقودهم على بن يوسف نفسه ، ووُجِّهتهم طليطلة ، وإقليمها ، فشنوا عليها غارات عنيفة ، واسترجعوا من كبار مدائها « مجريط » ووادى الحجارة (Guadaluja) ، وحاصروا طليطلة شهراً دون أن يصلوا الى نتيجة ، وعادوا الى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب في نفوس أهل قشتالة وأمنوا خطرهم ، فانهز على بن يوسف فرصة الهدوء في هذه الجهة ، وأرسل قائده الأمير « سير بن أبي بكر » في حملة عنيفة الى غرب الأندلس استعادت مدائن شنترين (Santarén) وبطليوس (Badajoz) وبرتقال (Oporto) ويأثيرة^(٢) .

(١) وقد ذكر ابن أبي زرع خطأ أنه توفي بعد المعركة بعشرين يوماً. روض القرطاس ،

س ١٠٣

CODERA, *op. cit.*, p. 10, 239-242

BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II, p. 232-233

(Evora) وأشبونة (Lisbon) (٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) ^(١)، وقد وإلى المرابطون الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا إلى نتيجة . وكان مركز الإسلام في شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد أن استعاد المرابطون بلنسية من النصارى في سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت هي وإقليمها تحت سلطان رودريجو دياذ د بيثار المعروف بالسيد القمبيطور (El Cid Campador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م — ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) وقد استخلصها من أيدي رجال هذا المغامر القشتالي القائد المرابطي أبو عبد الله محمد بن مزدي ، بعد كفاح طويل مرير مع زوج السيد «شيانة» (Chimena) وألفونس السادس، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا فيها النار، وجعلوها كومة رماد ^(٢)، ولكن عودتها قوّمت الجبهة الإسلامية في شرق الأندلس، وفتحت الطريق أمام المرابطين لتأمين سرقسطة والغر الأعلى، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالقة .

وكانت أحوال «سرقسطة» تسير في ذلك الحين من سيء إلى أسوأ، وكان أهلها قد سكنوا خلال المدة الماضية لما كان من همة أميرهم «المستعين» واقتداره على مضانعة «السيد» و«ألفونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرها . وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع «السيد» وإيواءه إياه واستخدامه له في حروبه، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان «السيد» ينزله بأهل بلنسية من الويلات ^(٣)، ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٠٥

(٢) لا يتسع المقام هنا للكلام عن «السيد القمبيطور» وعلاقته بالمسلمين وفظائمه في بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التي كانت تحيط بحياة هذا الفارس القشتالي الذي جعلته أشرطة الملاحم الأسبانية أعظم رجال عصره، ثم جاء منتدذ بيدان فجعله أعظم أبطال التاريخ الأسباني إطلاقاً في كتابه المعروف *La España del Cid* وقد قرر فيه آراء تستدعي من جانبنا استدراساً شاملاً .

(٣) راجع ما يقوله «ابن عذارى» في القطعة التي نشرها إيشي بروفساك من الجزء الرابع من «البيان المغرب» في مجلة الأندلس :

LEVI PROVENÇAL: *La Toma de Valencia por el Cid*. Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, fasc. 1 p 123

لأنه كان بين المطرقة والسندان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس» عليه لضاعت سرقسطة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه في مرسية ، ولم يكن في استطاعتها الوصول الى بلاده . فلما توفى السيد في سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود في الاستيلاء على شرق الأندلس كله ، وحايته من أذى المغامرين من فرسان النصرارى وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم في ذلك الحين الى شرق الأندلس ، فأقام على بن يوسف أخاه أبا الطاهر تيمناً عاملاً على الأندلس ، وندب هذا أكبر قواده «محمد بن الحاج» قائداً لجيوشه في الشرق وجعل مركزه مرسية ، وجعل معه نفراً من أكبر قواد «لمتونة» تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وأبا بكر إبراهيم بن نافلوت أو «نافلوت» وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو في نواحي سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضى النصرارى ، وكان أبو بكر إبراهيم ابن نافلوت حاكماً مدنياً لمرسية وإقليمها ^(١) .

وهلك المستعين بن هود — على ما مر — في سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيج أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير «المرابطون» من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل الى جيرانه النصرارى ميلاً قوياً ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرطوا عليه «ألا يستخدم الروم ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس الى المثلثين» ^(٢) .

وكانت الجبهة النصرانية قد جدد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر في مصير الأندلس الاسلامى ، ذلك هو صعود «ألفونسو الأول» الملقب «بالمحارب» (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ / سنة ١١٠٥ م ، فقد كان فارساً جليداً متجدداً الهمة شديد الطمع فيما

(١) ابن أبى ذرع ، روض القرطاس ، ١٠٤٠

(٢) ابن الأثير ، الحلة السراء ، ص ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان الى نشاطه وذكائه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراکا Urraca » ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفي هذا انضمت ليون وقشتالة الى أرغون ودخلت في طاعته كذلك إمارتا « جليقية » و « البرتغال » وكانتا تؤديان اليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطلونية في الشرق وبلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدرو » الحماس المسيحي والرغبة في الاستيلاء على ما بيد المسلمين من بلاد ، وكان « بدرو » قد حوّل الكفاح بين الاسلام والتصرانية في شبه الجزيرة الى حرب صليبية ، لأنه « لما أسفرت الحرب الصليبية عن النجاح ، ولما الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثاني الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان التصاري الاسبان قد مُنعوا من مرافقة الصليبيين الى بيت المقدس ، فقد رأى بدرو ورعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها ضد (أعداء الدين) »^(١) . بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب في حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدائن الشمال الشرقي ، وكانت تراءى أمامه فريسة سهلة لا يكاد يعصمها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاة المستعين وقيام ابنه عبد الملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولولم يُشغل ألفونس عن « سرقسطة » بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراکا وأنصارها ، لتقدم سقوط سرقسطة في يده بضع سنوات .

ولم يكن لعبد الملك بن هود يد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف في المداواة والانكماش أمام الفونس المحارب ، فخشي المرابطون أن ينتهي الأمر بضيماع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائد محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالتصاري ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة ، ويحني عليهم

(١) اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (تعريب الامتاز

محمد عبد الله عنان) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فأنصرف عنهم ^(١) ، وزادت مخاوف عبد الملك من ناحية المرابطين ، وعول على الاستنجد بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شرطوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو مخالفتهم ، وبلغ الخبر مجدداً بن الحاج قائد المرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، وعجل عبد الملك بالاستعانة بالقونس ، فأسرع مجدداً بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبد الملك بن هود إلى الشمال واستقر بمحصر روضة (Rueda) تحت حماية القونس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك انتهى الدور الأول من تاريخ بني هود في سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر في نواح أخرى من الأندلس في أواخر أيام الموحدين ، ويبدأ بذلك الدور الثاني من تاريخهم .

فلما تمكن الأمر للمرابطين في سرقسطة تجردوا للحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال يناجزهم ويعتدى على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج مجدداً بن الحاج في حملة قوية نحو برشلونة في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م . وصاحبه القائد مجدداً بن عائشة ، ومر الجلبش في طريقه إلى برشلونة بمحصر ثرفيرا (Cervera) ^(١) فخر به ، ثم وصل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد المرابطون في تخريب أرباضها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد الحصانة ، وعادوا محملين بالغنم الوافر ، ويبدو أن الغنائم كانت كثيرة جداً ، لأن مجدداً بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الرومانى ؟) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم مجدداً بن عائشة ، فسار في مفاوز وعرة ومضائق مليئة بالمخاطر ، فأنهز جنده برجلونة الفرصة ، وكنوا له عند ضائق وعرة قريب من حصن كونجست دل مارتوتريل (Congost del Martorell) وهاجموه « فقاتلهم قتال من أيقن بالموت ، واعتنم الشهادة ، إذ لم يجد متفذاً

(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن أبي زرع في وصفه لهذه الحملة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللفظ تحريفاً من الناسخ لاسم الحصن .
اقتصر :

(CODERA : *Decadencia...* p. 21

وابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة ففر بالخيالة إلى بلاد المسلمين »^(١١) (٥٠٨/١١١٤م) وكانت لهذه الكارثة رجة كبرى في بلاد الأندلس ، وعجل الأمير علي بن يوسف فأقام الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسوي^(١٢) حاكم مرسية إلى ذلك الحين ، حاكما على شرق الأندلس . وقد أصيب محمد بن عائشة في هذه المعركة أصابة لم يلبث أن فقد بصره بسببها فيما بعد^(١٣) .

وتجرد أبو بكر ابراهيم بن تافلوت لحرب برشونة للإخذ بثأر هذه الهزيمة ، فجمع جنداً كثيرين وسار بهم إلى بلنسية ثم إلى سرقسطة ، وجمع من نواحيها من استطاع من الجند ، وسار فنزل ببرشونة وضيقي عليها وأزل بزارعها خرابا شاملا^(١٤) .

وكان الأمير علي بن يوسف قد عزل أخاه تيماء عن ولاية الأندلس واستبدل به الأمير سير بن أبي بكر ، فأقام في الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م فولّى حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكما إلى أن توفي سنة ٥١٠ هـ / ١١١٥ م خلفه في هذا المنصب الكبير الأمير عبد الله مزددلى ، وكان من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيماً في حرب النصارى ، ولم يقصر جهوده على إقليمى طليطلة وغرب الأندلس كما كان سابقه يفعلون ، بل اتجه بهيمته إلى الشعر الأعلى ، وكان الضمط الصرائى قد اشتد عليه من كل ناحية : كان الكونت رودريجو نونيز Rodrigo Nuñez (يسميه ابن زرع « بنى الزند غرسيس ») صاحب « وادى الحجارة » قد سار إلى « مدينة سالم » فحصرها ، فسار إليه عبد الله مزددلى واضطره إلى الفرار تاركاً عسكره وأثقاله ،

(١١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(١٢) يرد اسم هذا القائد عادة دون نسبه ، وقد عثرت على نسبته تلك عند ابن خلدون :

العبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(١٣) اختص ابن الأثير ابراهيم بن تافلوت بمادة من مواد « المعجم وأخبار أنى إلى الصدى » (ص ٥٥) ومنها نعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يعرف بابن تيبشت .
(يسمي ابن الأثير هذه الوقعة « بوقيمة البورت » .

(١٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه الى إقليم سرقسطة ليدفع عنه هجوماً عنيفاً قام به ألفونس الأول
المحارب صاحب أرغون ، واشتبك أبو عبد الله مزدلي معه في قتال عنيف
استشهد فيه سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م^(١) ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء .
وفي هذه الأثناء كانت الحرب بين أبي بكر بن تافلوت قائد المرابطين في
سرقسطة وبين رامون برنجير صاحب برشلونة مستمرة على أشدها ، وانكسر
المرابطون كسرة شديدة ، في سهل برشلونة في أواخر سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م .
وبعد ذلك بسنتين توفي ابن تافلوت آخر كبار حماة شرق الأندلس
من المرابطين^(٢) ، واشتد الضغط على سرقسطة وبدأ بوضوح أن مصيرها
الى النصارى (٥١٠ هـ / ١١١٧ م) .

وفي أوائل سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م تخرج أمر المرابطين في شرق الأندلس
بل في الأندلس عامة بعد أن تخطف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ،
وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر
علي بن تاشفين إلى الجواز بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة في صفر من ذلك العام ، وأقام
محمد بن عبد الله مزدلي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة وزوده بحشود
من الجند والمطوعة . وكان « ألفونس المحارب » قد أقبل يحاصر سرقسطة
وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مزدلي يدافعه عنها حتى ألجأه
إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفي محمد بن مزدلي ولم يتسع
الجال أمام المرابطين لتولية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد .
فانتهز ألفونس الفرصة وأقبل يحاصر البلد من جديد^(٣) (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) .
وزاد طمع ألفونس حينما وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين .
فحاصر « لاردة » وكاد يستولى عليها ، فأرسل أهلها يستنجدون بعلي بن يوسف
فبعث أخاه تيماً وأقامه عاملاً على شرق الأندلس ، فسار تيم في جيش كبير

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA : *Almoráides...* p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط الاسكوريال) ورقة ٩٨

(٣) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA, *Almoráides*, p. 250)

وسار معه عمه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وثبتوا لألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده^(١١) ومضوا يتعقبونه في بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار في القتال ، لأن أمور المرابطين اضطربت في مراکش ، فاضطر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراکش ، وكان بهوم بأمر مرسية لعل بن يوسف أخوه أو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سر قسطة لرب أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها . وعاد إلى مرسية^(١٢) وخلا الخو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « في أم كالم والجراة » فزلوا معه بها ، وشرعوا في قتالها ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات ، وقربوه منها ، وانصبوا عليها عشرين متجيقا ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فنتت الأقوات وفي أكثر الناس جوعا . فراسلوا ابن رديم (ألفونس الأول المحارب) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فان لم يأتهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له ، فعهدهم على ذلك ، فتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية . وذلك في سنة اثنتي عشرة وحماسة ، وبعد دخولها وتملك النصاري إياها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها^(١٣) . هكذا سقطت سر قسطة قاعدة الاسلام الكبرى في شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطربت بسبب ظهور الموحدين واشتداد القتال بينهم وبين المرابطين في إفريقية .

وعلى رغم المصاعب التي أحاطت بعلی بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥١٣هـ / ١١١٩ م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصاري في كل ناحية ، وقد بذل على بن يوسف جهده وأقام أخاه تيمما حاكما عاما على الأندلس من جديد ، فمضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

(١٢) ابن الخطيب ، اذخالة (مخطوط الاسكوريال) ص ٩٨

(١٣) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلحون في طلب النجدة حتى استمع اليهم تميم وبعث اليهم قوة مرابطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج معهم حتى العلماء من أمثال أبي علي الصدقي وأبي بكر بن العربي لم يترددوا في اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «لقلعة أيوب» ، فساروا نحوه . والتقوا معه عند بلدة (كتندة) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة انزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بمئة آلاف فيهم أبو علي الصدقي ، ويؤكد المقرئ أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وجددهم . (ربيع الأول أو الثاني سنة ٥١٤ هـ / يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠) (١) .

ويكفي للدلالة على الصدى البعيد الذي كان لهذه الهزيمة في بلاد المسلمين أن نذكر أن علياً بن يوسف جاز إلى الأندلس بنفسه في العام التالي (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) لكي يأخذ بثأر هذه الهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سرقسطة ، لأن الطريق إليها كان قد أقفل كما ذكرنا ، فاكتفى بمغازاة نواحي طليطلة والبرتغال وأثنى فيها واستولى على قلعة قلبرية Coimbra (٢) على شاطئ المحيط الأطلسي . ثم عاد إلى إفريقية بعد ذلك تاركاً أمور الأندلس لاختيه تميم وسرى أن تهما سيجاول بعد ذلك الانتفات إلى سرقسطة لاستنقاذها : ولكن محاولته ستكون هزيلة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهمزم أمامهم عندما كان يعرف بالقلعة أو القلاع لم نستطع تحديد موقعه بالضبط (انظر مقدمة الوثيقة الثانية) .

(١) راجع عن معركة كتندة : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٢١٤ — ابن ادبار : المجموع في أخبار أبي علي الصدقي ، ص ٧ — المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٧٥٩ (الجمعة القاهرة) .

SAN JUAN DE LA PEÑA, *Cronicon*, p. 68.

ZULIYA, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

Annales Compostelani Esp. SACR. XXIII, p. 321.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

أشباح ، تاريخ أندلس ص ١٥٣

وكانت لهزيمة كسندة الفاسية نتائج بعيدة المدى في مصر « الثغر الأعلى »
الأندلس كله ، إذ أن استيلاء « الفونس » على هذا الحصن المنيح المجاور
« لدروقة » قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن « قلعة
أيوب » المجاور له . وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرو الأعلى ،
ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تنهد لانقاذ سرقسطة ، وسترينا
الوثيفة الثانية كيف أن المرابطين لم يجرؤوا بعد ذلك على مجرد الاقتراب
من سرقسطة ، لأن « كتند » « وقلعة أيوب » كانتا في يد هذا المحارب
الأرغوني الذي لا يكل ، وكان ينفذ لا تغفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما
استولى على معقل من معاقل المسلمين اتجهت به المهمة الى الذي يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جديّة قام بها المرابطون لاستنقاذ سرقسطة ،
ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون
والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد
العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين
كانت تشتت يوما بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة
إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس
المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للمحافظة على تلك الغنيمة العظيمة
التي سقطت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركيز قواته كلها
للقوز بها طوال نيف وعشر سنوات . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت
نفوسهم بالمرابطين ، وعما قريب تبدأ الثورة عليهم في كل بلد أندلسي ،
ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسيئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدروها ،
وسيقف المرابطون في الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمي الأندلس .
فكيف كان يتاح لهم التفكير في استنقاذ هذا المعقل الاسلامي الذي ضاع الى الأبد ؟
هكذا سقطت « سرقسطة البيضاء » درة « الثغر الأعلى » وطلية
حصون الاسلام في معركة الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها
الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عداوة المرابطين وأضاعها المصادفة السيئة ،
مصادفة ظهور الموحدين في ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقسطة وشرق الأندلس :
كم من جيش لهم هلك مناجزاً عن حومة الاسلام ، وكم من قائد لهم سقط
في سبيل سرقسطة ولاردة وبلنسية وغيرها من حصون الاسلام ! ولكن
شيئاً من ذلك لم يُعند ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درءه حيلة .
أحس ، ولم يفقد هؤلاء المرابطون المجاهدون رغم ذلك كله الأمل في استنقاذ
ما يمكنهم إنقاذه من حواضر الاسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكذب تمنح لهم
الفرصة حتى انددوها وأمانهم الحظ هذه المرة : وفي شعبان سنة ٥٢٢ هـ
يوليو ١١٣٠ م توفي عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة الذي ذكرنا
كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه ولجأ الى حصن « روطبة » المعقل
الوحيد الذي بقي للإسلام من إمارة سرقسطة . وهناك أقام في حامية
« ألقونسو المحارب » صاحب أرغون ، وخلفه ابنه أبو جعفر أحمد
سيف الدولة^(١) ، الذي أبقى رغم سوء حاله وانضوائه تحت لواء ملك نصراني—
إلا أن يتخذ لنفسه امباً خلافاً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ
السيء كل من اتخذه من خلفاء الاسلام ! ويبدو أنه ضاق بسُلطان
« ألقونس المحارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه ألقونس ريمونديز
Alfonso Raymondez ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية « السليطين »^(٢) ،
وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملاتهم المتوالية على الثغرات الأعلى على طرطوشة
ولاردة وإدراغة Praga ومكناسة Mequinez^(٣) ، ولم يستطيعوا الاستيلاء
على « روطبة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها
ملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا
الاسلامية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع .
وفيما بين سنتي ٥٢٥ ، ٥٢٦ هـ (١١٣٠ ، ١١٣١ م) استطاع « ألقونس المحارب »
أن يستولي على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل ، ثم توجه بقواته نحو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٤

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله

عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) Codera, Almoravides, p. 12-13

« إفراغة » وكانت كَوَكْر العقاب تشرف على نهر « أنجا » فحاصرها حصاراً شديداً ، وأسرع لنجدتها أمير مرابطى من قبيلة « مسوفة » سيكون له أثر عظيم فى تاريخ الأندلس خلال تنصر الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بنى غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، وكان يلى بالنسية ومرسية اعلى بن يوسف ، وسار لنجدتها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على « لاردة » ، وانضمت الى فواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس ، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستيلاء على « إفراغة » وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله ، مما يدلنا على مقدار الحماس والتفانى الذى كان يعمر نفوس هؤلاء الأسبان فى هذا الدور من صراعهم مع المسلمين . وبلغ من رغبته فى استنفار قومه أن أمر برفات القديسين فأتى بها الى الميدان إذكاء لروح الحماس الدينى فى قلوب الرجال ، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصفوف ، حتى التهب نفوس جنوده حمية ، وأقبلت قوات المرابطين واشتبكت معهم مرتين لم توفق فى كليهما ، فوقع اليأس فى قلوب أهل البلد وعولوا على التسليم . ولكن ألفونس رفض وصم على أن يفتح البلد بمجد السيف .

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين : واندفعوا يقاتلون قتال المستبشرين ، وكرّ المرابطون على البلد مرة أخرى فى عزيمات قوية : واستدرجوا الجيش الأرغونى الى كمين وضعوه فى الطريق ، ثم انقضوا عليه من كل ناحية ، وامتلكوا زمام المعركة ومنزقوا الجيش الأرغونى شرمزق ، وسقط من حماة النصرارى وقوادهم وأساقفتهم فى هذه المعركة نفر كبير فى مقدمتهم « ألفونس المحارب » نفسه ، سقط تحت سيوف المرابطين^(١) فى ختام هذا الصراع الرهيب الذى احتدم بينهم وبينه عشرات السنين (٢٣ رمضان ٥٢٨ هـ / ١٧ يوليه ١١٣٤ م).

(١) راجع عن موقعة إفراغة : الضبي : بنية الملتصق ج ١ ص ٩٥ ، ٤٠٦ — ابن الأثير ، الكامل : ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب ، الاطاحة (مخطوط الاسكوريال) ص ٢٨ — ابن عبد المنعم الجيرى ، الروض المطار ، ص ٢٤ — ٢٥ — *CRONICA DE ALFONSO VII en España Sagrada*, XXI pp. 333-344 CODERA, *op. cit.* pp. 267-272

هكذا فشل ملك أرغون في الاستيلاء على إفراغة ولاردة . وارتفعت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم ، وبدوا كئناًهم مبادرون الى الافتراب من سرقسطة التي كانت قد أصبحت عاصمة أرغون ، ولكن الظروف لم تسعفهم ، ذلك أن الحظ عوض الجبهة النصرانية بملك آخر لا يقل نشاطاً - لا رغبة في مغالبة المسلمين عن ألفونسو المحارب ، ذلك هو ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون ابن الملكة أوراكا - ثنى ألمنا بطرف من أخبارها - من روجها ريونديز البرغوني . كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . بعد أن توفيت أمه الطموح التي قضت في ميادين القتال معظم عمرها ، ومن غرائب المصادفات أن عام ولابته كان عام وفاة أبي الطاهر تميم الذي ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة ، خلا بعض فترات قصيرة . وبوفاته أخذ أمر المرابطين في الأندلس بهوى في سرعة .

وليس هذا مقام ذكر ما تلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية في الأندلس ، لأنهم سيظلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغازون بلادهم دون أن يوفقوا إلا إلى قليل ، لأن شئون دولتهم في إفريقية كانت قد اضطربت اضطراباً زائداً ، ولأن أهل الأندلس المسلمين انقلبوا عليهم في كل ناحية ، وقاموا عليهم يقتلونهم حيث وجدوهم ، وانتهى أمرهم في الأندلس وفي المغرب كذلك نهاية محزنة : أبادهم النصارى والأندلسيون في الأندلس ، وقضى على قواتهم الموحدون في المغرب ، ولم يبق منهم إلا فرع بنى غايمة السوفيين الذين اعتصموا بالجزائر الشرقية وظلوا يناوئون الموحدين حتى أيام الناصر الموحدي .

ويهمنا من ذلك كله أن دولة الاسلام فقدت سرقسطة الى الأبد ، وسنرى في الوثيقة الثالثة أن علياً بن يوسف كان مهتماً بأمرها يفكر في استعادتها . ولكن محاولاته كلها لم تسفر عن شيء .

وكان الفونس المحارب قد نقل عاصمة ملجته إلى سرقسطة بعد استيلائه عليها مباشرة وحول مسجد الجوامع الى كنيسة . وأزل فيها أعداداً عظيمة

من جنده وأهل أرغونة ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ، وتمكن خلال السنوات الثلاث التي تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طر كونة *Tarragona* عاصمة أسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة ، واستولى كذلك على « قلعة أيوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الثغر الأعلى » مثل « شقف » وروحة ومكناسة فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على افرغة^(١) . وبهذا انتهى الثغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الاسلام في شرف الأندلس بالنسبة ومرسية ، وشكوانان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والاسلام في عصر الموحدين .

BALLBSTERAS ' *Hist. de España*, II pp. 327 seq.

الوثائق

الوثيقة الأولى :

موقعة « أقليمش » من المواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهي أحد الانتصارات الكبرى التي أحرزها هؤلاء الممتونيون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم في إفريقية للذياد عن مصير الاسلام في الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباخ » في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » في تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في أقليمش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م (١٧ شوال سنة ٥٠١ هـ) ذروة سلطانهم في إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في اسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس ، ويفقدو سقوطهم في القريب أمراً محتوماً » (ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردتها في الفصل التاريخي السابق ، ولا نحتاج لجهود كبير لنستبين أن هذه الوثيقة تضيف الى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئاً كثيراً جديداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي من بلدة « برجة » بالأندلس ، وكان من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد أورد المقرئ له له في « النفع » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل في خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد المنعم الحميري فصلاً لأقليمش في « الروض المعطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن في نجر الأندلس ، وهي قاعدة كور تشنبرية وهي محدثة ، بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ثم اختار أقليمش داراً وقراراً ، فبناها وبندها ، وهي على نهر منبعث من عين عاليه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ماء حمأها ، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليمش ، فإن طول كل جائزة

من جوائز مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهي مربعة منحوتة مسقوية
الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أقليمش Ucles اليوم في مديرية قونقة Cuenca في ناحية Tarancón
في إسبانيا كما ذكرنا .

cf. LEVÉ PROVENÇAL : *La Péninsule Ibérique* ... p. 35 et n. 3
وفد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة ، للمعركة التي نحن بصددنا
ولكن الوصف الذي تقدمه هذه الوثيقة دقيق يعطينا صورة واضحة
جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتبع تطورها في تفصيل
عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض
رؤساء الغرب ^(١) إلى أمير المسلمين ^(٢)
رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله ^(٣) بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » ^(٤) ، عماد الأنام وعتاد
الاسلام ، السعيد الأيام . الحميد المقام ، كبيرى بالقدر وظهيرى على الدهر ،
الذى أجله بحقه وأقر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة
مجدد النعم والزيادة . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ،
وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا في الأصل ، ويراد به « الغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس
يضاً في ذلك الحين .

(٢) على بن يوسف بن تاشفين .

(٣) لم يتم فتح « أقليمش » في هذه الحملة . إذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ،
بما نرى ، ولهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بين الشولات هو اللقب الرسمى الكامل لأسماء المرابطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم الأندلس وفاته
هذه الحملة .

والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام ،
وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأُذار . والله تعالى يُشفع
سعوده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آله التشريف
والعز المنيف . وألحقتنى من النعماء وأسجبنى أذيلها ، وصرف إلى
من عدهه وبلده ما أولانى نعمه ووالانى كرمه ، حفظتُ تلك الجريمة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد (ف ٥٤)
عالقاً بسببه ، أخذاً بمذهبه . وهيات من ماله عندى جيشه الموضوع بيدي ،
وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة يميناء رأسها وعلى تقواه
أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر
من شهر رمضان المعظم ^(١) بجيش تصم صواخله وتطم كواهلها ، راياته خافقة
وعزماته صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منا دينا ،
وتبعت هادينا . وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كيون ، وتحركوا
عن سكون ، وأنحنا بناحية بيّاسة ، وقد توافد الجمع وملى البصر والسمع .
وأخذت فى الرأى اخمّره والعزم أضمره والذيل أشمره ، وجددت
الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهات إليه داعياً ضارعاً ، وعولت
فى كل أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً .

ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان
عنوان الأبهة على أعلام بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش فيضاً على أرض ققيض
غيبضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة
الأعنة بآلام قلوبهم ، وأشرفت كواكب الاسنة فى عتام القتام ومدت
الخطوة لكل منبج ^(١) قبيل ، واستقلت الرايات عن كل قبيل قبيل وأفضت

(١) سنة ١٥٠١ م مايو سنة ١١٠٨ م .

بنا الخيرة الى المدينة الحصينة « أفايش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والصور المشيد ، وبدر السابق وشفع اللاحق .

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها ، واكتنفناها اكناف الشيخة لسببتها ، وهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وخاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل صرب من الحرب ، نخسف عاليها ونسف هاويها . ولزها بالرماح ، ونهزها هز الفصن في أيدي الرياح ، حتى فض الحتم وعض منه الابهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر . ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محي الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبت بهم سطوتنا فبذة ، نفروا إلى الأذقان ، وسبقوا إلى الموت والأذعان ، فاكدنا نزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنحننا حتى رضخنا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر بهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبعث وشغل الأخيد (ف ٥٥) عن الفتل ، وألهى الكثير عمن قل ، ونام الجم الغمير عن القل ، وعاذت ^(١) بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن فصل الجد ونوحر [^(٢)] لأفل غرب ، ولأمكن حرب ، نجحت الجرائم . ونحتر الغلاصم ، ونحرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، وتتاحف بهدايا السبايا ، وتكاشف عن بقايا الخبايا ، ونصرح ^(٣) ببياننا صدعته الختوف وغلبته السيوف ، فلا طلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الايمان ، وبذل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت

(١) في الأصل « عادت » .

(٢) كذا في الأصل من غير نقط يعقبه بياض بقدر كلمة .

(٣) في الأصل : وتتاحفوا وتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها الناسج نتيجة للاملاء ، وهذه الطاهرة تدل على أن أهل الاندلس كانوا يصفون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة نطقية (مونيكية) جديرة بالملاحظة .

النواقيس عن بيعها ، ولأذ بنا من هنالك من المسلمين عائدين بنا مستسلمين لنا ،
فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة
إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فأنجابت كُرْبَتهم ، وعادت بعد البوار
وبجائرة الكفار بِشَرِّ دارملتهم ، وأنازلهم الاسلام على منار الایمان المجرد ،
واشتهر فيهم التوحيد اشتها الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمره ،
وخطب الحق المبين على منبره .

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار .
فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغیضت تلك الدماء الهوامر (١٥٦) وغدا الخميس
في الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذیال الظفر في العدد الأوفر ،
يشفع الأولى بالتوالى ، ويشترى العولى بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ،
وأصبحوا لانرى إلا مساكنهم كأن لم یغنوا بالأمس .

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن ، والحصن
في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبغ في الخاتم ، « والحصور مأسور
وصاحب الحائط مقهور »^(١) ، ولم تزل نوسعهم قتالا ونوسعهم 'ضراً' ونكالا
مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدّه ، وبث الليل جنده ، فعدنا إلى محلنا وقد أملّ
الکال^٢ أينّه ، وغلبت الساهرعینه ، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس
جهاثها وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر ، ولكن
كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية^(٢) زاده الله ذلا قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،
وأبعد في الاستصراخ مضاره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى دُمر^(٣) ، وانطوى
على غمر ، فأقدم وصمم ، وبئس ما تیمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

(١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الأندلسية .

(٢) يريد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(٣) كلمة لم أستخدم قراءتها والنذر زار الأسد .

اذفونش^(١) وصاحب شوكتهم السبر هانس^(٢) والقمط بقبدر^(٣) وقواد
بلاد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » . وكل قاص
ودان ، (٥٦ ف) وماجل وأخزى الله جميعهم ، وطل نجيعتهم ولا أقام صريعهم .
وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتُهُ لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف يجتمعهم يريدون البقرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ،
وتقدموا فتقدموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا . وأرسل الله تعالى
من جنده فتي كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبيثة
أعدها من عنده وبعثها لجنده ، ونزع^(٤) الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم
دالا عليهم . وكاشفا بهم عن النبأ العظيم ، ومستطلعاً منهم على المقعد المقيم ،
فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد
وأشار البنان والساعد ، وتضام الفريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح

(١) الإشارة هنا إلى « سانشو » وحيد ألفونس السادس الذى قتل فى هذه المعركة .
(٢) الرهانس هى الصيغة العربية للفارس القشتالى المعروف Alvar Hanez
ابن عم السيد القميطور وعدوه اللدود فيما بعد ، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة
وليون فى كل حروبه ، وقد اشترك فى جميع المواقع التى وقعت بين ألفونس والمرابطين ،
وقد كان من كبار فرسان قشتالة فى معركة « أقليمش » وانهمز مع من انهزم ، وخسر
اقطاعيته فى قرية ثوريتا Zorita حينما استولى المرابطون على قوطة Guenca بعد
انتصارهم فى أفنديش ، وقد أقامه الفونس بعد ذلك حاكماً لطيطة ، فقام بالدفاع عنها حينما
حاصرها « المرابطون » فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد توفى سنة ١١١٤ م على يد أهل
-قوية Segovia فى الحروب التى استمرت بين الفونسو المقاتل صاحب أرغون والمملكة
« أوروكا » صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDEZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الإشارة هنا إلى الكونت « جوثيا د كبرآ » Garcia de Caba مؤدب
الأمير « سانشو » الذى قتل فى المعركة .

cf: BALLESTEROS: *Hist. de España* II. p. 323.

(٤) لفظ « نزع » هنا مستعمل استعمالاً خاصاً ، لأن « النزاع » فى الاصطلاح
الأندلسى هو الجندى الذى يندس فى جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متكرراً
فى زيم حتى يشرف أخبارهم أو يثبت بهمهم ، ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه
أو بعد سقوط الحصن ، وكان فى الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف
« بديوان النزاع » .

فد بدأ . والدجاجير ممدودة السراقق ، مجموعة الفيلاق ، ولا جبار إلا الفاسق ^(١) ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استندفت القائدين المجريين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة « أبا عبد الله محمد بن عائشة » وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة ^(٢) وليسى أعزها الله . فجألا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين . وخضعنا إلى حكمه مستسلمين . فعند ذلك حل يده المحتبي ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالرايات . وحكمت الهى فى النهايات (١٥٧) والأسنة تجول ^(٣) فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمارها . وترنا كما تار الشهم بفرصته ، وطار الشهم لفرصته ^(٤) ، وأمرت رجلا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسيابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قبح شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه .

ونهمضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لآمه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نفتق سبيله ، ونبتغى دليله ، فما رفع الفجر من حجابيه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل منحسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراق ريعان ، ولا خفاق الأعلام ضراب أو طعان .

(١) أى المدو .

(٢) لم نعلم إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة .

(٣) فى الأصل : وإلا يحول .

(٤) فى الأصل من غير نقط ، وقد جاء فى لسان العرب : « وفرضة النهر ثلثته التى منها يهتق » ، وفى حديث موسى عليه السلام : « جئى أرفأبه عند فرضة النهر أى مشرعة » وجمع الفرضة فرض ، وفى حديث ابن الزبير : واجعلوا السيوف المنايا فرضا أى اجعلوها مشارع للمنايا وتمرنوا للشهادة « (ج ٩ ص ٧١) ولهذا قرأناها : فرضة .

وعند ذلك نجم « المعجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهطعون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى . كأنما شجروا بالديد ، وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون [الموت] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالوا أن لا يتخالقوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبي ترابي »^(١) مع جماعة ، فصددهم العدو بصدور نمرية وقلوب أشرة ، فأنحوا بكل كل أورموا بجدل ، وشدوا فاردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهر القائد « أبو عبد الله » غير مؤلٍ وتراجع غير مغل إلى أن اشند منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود .

فتراى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكنا ولائجين ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فدميمناه ، وأتى الصبر فأشرق بحياه ، ونزت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت الفياق مائجة ، وهدرت الشة اشق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغمد ، وتساهلت الخيول وتطاولت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة النهر ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب^(٢) . فظعن فارساً منهم فأدراه من مركبه ، ورماء بين يدي موكبه ، فأنهج ، ما ارتج ، وانفتح المبهم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان^(٣) ودجاليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهم ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح (١٥٨) بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بشكالها ، وثار ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلتغر الصدور ابتراء ، ولجزم القلوب

(١) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المرابطي .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » في القتال في الأندلس في ذلك العصر ، والغالب أن نفراً من العرب المهالين ، الذين كانوا في المغرب إذ ذاك ، عبر مع المرابطين إلى الأندلس للاشتراك في الحروب مع الصارى ، وسيترك هؤلاء العرب في تلك الحروب شكل ظاهري أيام الموحدين .

(٣) جاء في اللسان (ج ٨ ص ٢٨٧) خرصان : جمع خرم سنان الرمح ، أو هو الرمح نفسه

اتجاه ، ؟ فلا وضّحَ النهارُ ، ولا مسحَ الغبارُ ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، ومادت الضالة إلى الممك ، وقُلم ظفر الكفر ، وطأت أيمان الإيمان ، وفر الصليب سلباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً ^(١١) ، وغمرهم الختف فهمدوا ، وأطفأهم الحنين فخدموا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت الجبوت . واجملت تلك المنات ، عن رسوم جسوم قد قصفتها البواتر ، ووطأتها الخوافر ، خاضعة للحدود عائرة الجدود ، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدي بذيل وافي الكيل ، خيلا وبغلا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً أكلمهم حملها ، وأنملهم جعلها ، فساءت ملبساً وصارت مخسباً ، فطرحوها كأنهم منجوها ، وألقوها كأنهم أعطوها . احتزناها نهياً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطعة ولا نكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتيزت الدانية وزُهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردونش ^(١٢) والقومط (٥٨هـ) وقواد بلاد طليطلة ، وأكار منهم لم يكمل الآن البحث عنهم ^(١٣) ، فكانت كالمهضب الجسم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحّدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، وهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومسديها ، ومعيد المان ومهديها ، وصدرت غائماً وأبت سالماً ، وبقي الفائدان محاصرين لحصن أقبليش آخذين بمخفرهم ، مستولين على رماقهم .

(١١) كذا في الأصل ، ولعلها « صليبا » .

(١٢) هو السكونت Garcia Ardoñez قائد قشتالي آخر من كبار من قتلوا في هذه المعركة ، وكان من فرسان « سانشو الثاني » ملك ليون ثم أصبح من أتباع الفرنسي السادس صاحب ليون وقشتالة ، وحارب مع السيد جينا وضده جينا ، واشترك في مدارك كثيرة ضد المرابطين ، فسكان من المدافعين عن حصن لبيط Aleido . وانهمز أمامهم في هروقة « الكراز » Alcoraz ، وانترك في الهجوم على سرقةطة بعد ذلك ، ثم لقي حصنه في هروقة « أقيتين » هذه .

: MENNDEZ PIDAL: *La España del Cid*, index

(١٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في عهد الموقعة مباشرة .

نخطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل جهوره ، معلما بالأمر ،
مهنيا بالنصر ، المنيحمد الله عز وجل على ما وهب ، وشكره على ما منى وسبب
والله ينكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، وبين النظر والتأييد ، فهو ولي
الامتنان والمولى بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .
الوثيقة الثانية :

واضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة في يد
الهنوس المقاتل بسنوات ، وعند مقارنتها بالوثيقتين التاليتين يتضح أنهما
نتيجة لها ، ولما كان تاريخهما هو سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م . فإنا نستطيع
أن نقرر أنها كتبت في ذلك العام نفسه . ولا شك في أن أهل سرقسطة كتبوا
استغاثات كثيرة مثل هذه ، ولكن شيئا منها لم يصل إلينا ، ومن هنا كانت
قيمتها التاريخية ، إذ أنها صوت الجماعة الإسلامية في سرقسطة بعد أن صارت
في أيدي النصارى بسنوات . وعلى الرغم من إصراف كاتب الرسالة في المحسنات
للبدعية وتضييعه علينا بذلك أعم ما كنا ننتظره منه ، وهو وصف حال البلد
في ذلك الحين وصفاً واقعياً مادياً ، كما فعل محمد بن علقمة عند ما وصف لنا حال
أهل بلنسية في يد السيد القمبيطور في كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح »
بالرغم من ذلك لم تخل الرسالة من إشارات على أعظم جانب من الأهمية ،
وهي علاوة على ذلك تصور لنا حالة اليأس الشامل الذي وقع فيه أهل هذا البلد
بعد أن انتطعت الصلة تماماً بينهم وبين إخوانهم المسلمين في كل ناحية ،
ولهذا كله فهي جديرة بالدراسة ، وقيمتها التاريخية عظيمة ، أما قيمتها كنص
أدبي فلا تحتاج إلى بيان .

وقد حاولت أن أعرف على شخصية ثابت بن عبد الله كاتب هذه الرسالة ،
فلم أجد له ذكراً في مراجعتنا الأندلسية ، وهذا هو المنتظر ، لأنه كان من
هذه الجماعة الإسلامية السرقسطية التي قدر لها أن تنفصل عن العالم الإسلامي
انفصالاً تاماً ، وتحتفي في العالم النهراني شيئاً قشعباً .

رسالة *

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى
الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين^(١)
حين حاصرها ابن رذرمير^(٢) واستغلها^(٣) أعادها الله

من ماترى طاعة سلطانه ومستعجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله^(٤)
وجماعة سرقسطة من (الجمهور)^(٥) فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والحل ()^(٦) لحرم الاسلام
يمنعه (١٥٩) ()^(٧) من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

(كة) ابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاستراء دار حسنة بمجاهدة عداه ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان^(٨) ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
وأدهمت ضررؤها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل العزا (ع) وعظم
الخطب ، وأظلم الهلاك والعطب ، فيا عوناه ! ثم يا عوناه ! الى الله دعوة (تن)

* صفحة ٨٠ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) عامل الأندلس إلى بن يوسف بن قافين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض المصنوع : « ابن رذرمير » و « ابن رذرمير » وهي صيغة أقرب
إلى الصحة ، لأن الصيغة الأصلية لهذا الاسم Rduimir وهو من أسماء الجرمان ،
وقد حرفة الاسبان إلى Rduimiro ، فالصيغة العربية إلى هذا أقرب إلى الأصل الجرمانى
من الصيغة الاسبانية . والمراد بابن « رذرمير » هنا القونسو الأول ملك أريون وايون
وقتناه الملقب « بالمقاتل » El Batallador .

(٣) أى « واتولى زيارتها » مما يدل على أن هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد
في يد الصاري سنة ٥١٢ هـ .

(٤) ليست لدينا أى معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضى البلد ، مما يدل
أن على قاضى البلد كان لا يزال متبراً رئيس جماعتها كما كان الحال في المدن الاندلسية .
(٥) في الأصل : « الجبل » .

(٦) هنا كلمة ناقصة في معنى « حماية » .

(٧) يضاف في الأصل ، الكلمة النقص في معنى : « ودفعاً » .

(٨) لم نجد لنا الكتب السنة التي كتب فيها ، وألغالب أنه صدر بن سني

٥٢٠ — ٥٢٣ هـ ، لأن الرد عليه تاريخه سنة ٥٢٣ هـ .

دعاه^(١) وأُتِلَّ لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجليل الكرم والعوائد ، يا لله ! يا للإسلام ! لقد اتهمك حماة ، وفضت عراه ! وبلغ المأمول من بيبضته تداه ، يا حسرتاه على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالإيمان وازدهت بأقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان . ويا ويلاه على مسجد جامعيها المكرم ! وقد كان مانوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة التساق بذيهم أفدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبائح آثامها ، ويعمره بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها^(٢) . ثم يا حسرتاه ا على فسوة مكنونات عذارى ، يُعَدْنَ في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حياري بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذى دهمهم شديد والضر^(٣) (هـ ب) الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بذيات — كى من الستر نجبار الوجوه^(٤) — أن يروا فيهن السوء والمكره ، وقد كى لا يبدون للنظار ، ظالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشبوا في حجور الايمان ، يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان .

فما ظنك أيها الأمير^(٥) بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هى هى وقايد هذه العظامم الفادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها

(١) كذا في الأصل ، والغالب أن صحة اللفظ ناقص : « مؤمن » .

(٢) هذا يدل على أن مسجد سرقطة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب ، أى قبل سنة ٥٢٣ هـ . مما يدل على أن القونسيو المقتل لم يكذب يدخل البلد حتى خاف الشروط التى كان قد طامد المسلمين عليها .

(٣) كذا في الأصل ، ولعل صحتها : « نجبيات » أو « مخدرات » .

(٤) هنا يبدأ الجزء الثانى من الخطاب : جزء مهجة المرائيين ولومهم وتحميلهم مسؤولية كل ما يصيب الإسلام في أرندلس من المصائب . وقد كانت الاندلسيين على المرائطين جرأة بلغت حد الاهانة في كثير من الأحيان . وواضح أن الاندلسيين لم يكونوا يحترمون المرائطين ، بل كانوا يكرهونهم ، ولم يكونوا يتوجهون اليهم في طلب الدعوى إلا تحت ضغط الحاجة .

في آخر ذمائها، وتركها أغراضاً لأعدائها، حين أحجم عن لقاءها^(١)،
 قال الله بك المشتكى ثم إلى رسوله المصطفى ثم إلى ولي عهده أمير المسلمين المرتضى،
 حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادياً لك إلى مقارعة العدو
 المحاصر لها وجهاده، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته والمتجملين
 السبعة الأشهر الشدائد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته، من أمة قد نهكهم
 ألم الجوع وبلغ المدي بهم من الضراوحيق، قد برح بهم الحصار، وقعدت عن نصرتهم
 لأنصار، فتري الأطفال بل الرجال جوعاً يجرّون، يلوذون رحمة الله ويستغيثون،
 ويتمنون مقدمك بل يتضرعون، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون!
 وما كان إلا أن وصلت وصل الله بك بتقراء على مقربة من هذه الحضرة،
 ونحن (١٦٠) نأمل منك بحول الله أسباب النصر بتلك العساكر التي أقر الله
 بهاؤها وسر النفوس زهاؤها، فسرعان ما انتهيت وما انتهيت! وارعويت
 وما أدنيت! خائياً عن اللقاء ناكها على عقيبك عن الاعداء، فما أوليتنا غناءً
 بل أوليتنا بلاً وعلى الداء داء بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء
 بل أذلت الاسلام والمسلمين واجترحت فصيحة الدنيا والدين!

فيا لله وبالإسلام! لقد اهتمم حرمة وحماه أشد الاهتمام! إذ أحجبت
 أنصاره عن إعزازه أقبج الاحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة
 قليلة وأمة رذيلة، وطائفة قليلة يستنصر بالصلبان والأصنام، وأنتم تستنصرون
 بشماثر الاسلام، وكلمة الله هي العليا ويده الطولي، وكلمة الذين كفروا
 السفلى، وإن من وهن الايمان وأشد الضعف الفرار عن الضعف، فكيف
 عن أقل من النصف^(٢)؟ فما^(٣) قبج من رضى بالصغار وسيم^(٤) خطة

(١) هنا يدعى أهل سرقطة على المراتبين تهمة لا أساس لها: تهمة الاحجام
 عن لقاء الصغرى، وقد أثبتنا في المقال أن المراتبين بذلوا في سبيل الاسلام الأندلسي
 ما لم يبذله غيرهم، وقد كانت الحرب بينهم وبين الموحدين إذ ذاك على أشدها، وقودهم
 عن عون سرقطة إنما كان سببه سوء ظنهم، لا الاحجام عن لقاء الصغرى.

وسمى من بقية الخطاب، أنهم حاربوا اقاذ البلد رغم ذلك.

(٢) ربما أظننا هذه الاشارة على تحديد تاريخ هذا الخطاب.

(٣) كذا في الأصل، والغالب أن صحتها: «فيا».

(٤) في الأصل «وسمى» وهي كلمة وقع فيها التباس نتيجة الاملاء، وهي تؤيد

ما أشرنا إليه من منط الأندلسيين على أواخر الكلمات.

الخسف ، فما هذا الجبن والفرع ؟ وما هذا الملعع والجزع ؟ بل ما هذا العار
والضيق ؟ أنحسبون ^(١) يامعشر الرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ،
إن سبق على سرقة القدر بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلعون
بعدها ريقاً ، وتجدون في سائر بلاد الأندلس — عصمها الله — مسلحاً من النجاة
أو طريقاً ؟ كلا ! والله ليسو منكم الكمار عنها جلاء وفراراً (٦٠ ب) !
وايخرجكم منها داراً فداراً ! فسرقة حرسها الله هي السد الذي إن فُتق
فقت بعده أسداده ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار
وبلاد !

فلاَن ^(٢) أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح
قد طلعت ، فالنية ولا الدنية ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين
الأئمة والحمة ؟ وأين الهمم المرابطية ^(٣) ، فلتقدح عن زنادها بانتضاء جدها ،
وامتطاء جدها واجتهادها ، وملافة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله
هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن جأى
عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ؟ ألا ترغب
في رضوانه واشتراء جناته بمعارعة حزب شيطنة ، والدفاع عن أهل إيمانه ؟
فاستمن بالله على عدوه وحربه ، وأعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان
وحزبه ، فانهم أغراض للمنايا والخوف ، ونهز للرماح والسيوف ، ولا ترض
بمخلة العار ، وشوه الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولانكن كن قتل فيه :
يجمع الجيش ذا الألوف ويعزرو ولا يرزا من العدو فتيلاً

ولن يسمعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء ،
عن مناجزة الكفار والأعداء ، وكتابتنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة

(١) هنا يلجأ أهل سرقة إلى تهديد الرابطين وتخويفهم ، وهي خطوة بعد
القوم والتأنيب .

(٢) هنا يهود السرقسطيون إلى الرجاء والاستطاف . وواضح أن كاتب الخطاب
كان دحلاً ماهراً لبقاً ، يعرف كيف يجمع في كتابه كل ما عساه أن يستنهض الهمم
ويثير النفوس .

(٣) لاحظ هذه العبارة وما بعدها .

في جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والحاد . ونحن مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا ، وإعذارك إلى الدفاع عن حضرتنا ، وأنت لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا ، إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا ، فدفاعك إنما هو في ذات الله وعن كلمة (الدين ورب) (١) ، وشاماتك عن الاسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة العليا . فكم تحيي من أمم ، وتجلى من كروب وغم !

وإن تمكن منك الأخرى ، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك ، فأقبل بمسرك على مقربة من سر قسطة — عصمها الله — ليخرج الجميع عنها ، ويرأ إلى العدو وقه الله منها (٢) . ولا تتأخر — كيف كان — طرفة عين ، فالأمر أضحى ، والجال أزهق ، فقد بنا (٣) عن المظل والتسويق ، قبل وقوع المكروه والخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمستولون عن صيبتنا وأطفالنا ، لاحتجامكم عن أعدائنا (٤) وتببطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تمسكك من العار ما لم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبداً ، فآله الله ! اتقوه وأبدوا دينه (٦١ ب) وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار . قال الله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ... » الآية ، وقد برئتم باسلامنا للاعداء من نصر الاسلام ، وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمته ينزل (الصنم) الحيفي ، ويغنيننا الله عنكم ، وهو الحميد الغني !

(١) أمنت هذه العبارة يستقيم السياق .

(٢) هذه إشارة مهمة ، فقد كان الخروج من المدينة يباح لمن أراد من المسلمين ، من هؤلاء كانوا يخشون أن يتخطاهم المموس وجد النصرى في الطريق . ، وقد حدث ذلك كثيراً ولم لهذا يرجون أن يقترب من البلد جيش سراجل ليخرجوا من البلد ويسيروا إلى بلاد الاسلام في جهاد .

(٣) في الأصل : فديننا .

(٤) في الأصل : إعدائنا .

ومن متحملي كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا ، تقف من كتبه حالنا على ما لم يضمنه الخطاب ولا استوعبه الاطناب بمنه ^(١) وله أتم الطول في الأصفاء إليهم ، واقتضاء مآلهم إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ^(٢).

الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقسطة السابق ، وبعد أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبي بكر ابن سير يصف له لقاءه مع النصاري عند « الفلعة » ويعتذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذي يبينه في مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسي المعروف مروان بن أبي الخصال أعظم التاريخين الأندلسيين في ذلك الحين ، وواحد ممن انتهت إليهم رعاية النثر الفني في تاريخ الأدب الأندلسي كله ، وقد وصفه المقرئ في « نفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب سراج الأدب » ، صنفه على منزع كتاب « النوادر » لأبي علي (القالي) وزهر الآداب للحصري (القيرواني) (انظر ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤) ووصفه مرتين « بالوزير » مما يدل على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس في عهده . « أمراء الطوائف » والمرايطين ، وذكره « ابن حزم » في « رسالته » مفاخرًا المشاركة بترسيطة (المقرئ ج ٢ ص ١٣٠) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم تشر إليها المراجع ، وهي أن ابن أبي الخصال كان في ديوان الانشاء المراتبي ، وكان يقيم في مراكش في بلاط « علي بن يوسف » ولم يشر واحد ممن رجحوا للرجل إلى ذلك .

(١) هنا كلمة لم استطع قراءتها ، وربما مكذا : منه . والنائب أن الناسخ أسقطها هنا عبارة في معنى : ورجاءنا أن يتفضل الأمير علمنا منه .
(٢) هنا يقف الخطاب ، وكان يودنا لو عرفنا من جملة « متجملو » الخطاب وصف حوال أهل سرقسطة في ذلك الحين بقى من التفصيل .

وبصدور الكتاب عن « أمير المسلمين » نفسه يدل على أنه كان مشرفاً
إشرافاً مباشراً على أمور الأندلس في ذلك الحين ، وأن الكتب التي كانت
تصل إلى أخيه أبي الطاهر تميم مامل الأندلس كانت تحوّل إلى رئيس الدولة
المرابطية لينظر فيها بنفسه .

ونص الكتاب يدل على اهتمام « علي بن يوسف » بشئون الأندلس رغم
الظروف العصيبة التي كانت تحيط به وبدولته في ذلك الحين . وتلك حقيقة
هامّة تؤيد ما قلناه في هذا الأمير المرابطي العظيم ، وتدحض ما ذهب إليه
دوزي وسيمونيت وكوديرا ومتنذ بيدال في حقّه ، وتؤيد كذلك ما قررناه
من أن المرابطين ، كالأتراك العثمانيين ، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى
هي الدفاع عن حرمة الإسلام .

أما دزيمّة المرابطين وقادهم في هذه الجبهة الشرقية محمد بن أبي بكر بن سير
عند « القلمة » أو « التلاعة » — وهي لغة أندلسية في نطق هذا اللفظ — حقيقة
جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتي تليها ، ولا بد أنها كانت
إحدى المواقع الكثيرة التي وقعت بين « المرابطين » والنصارى في طول
الأندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة ، إذ أن المرابطين لم يكفوا
عن محاولة استعادة سرقسطة ، وكانوا لا يتوقفون عاماً واحداً عن إرسال
البعوث إلى ناحيتها ، وليس لدينا مع الأسف الشديد أى تفاصيل دقيقة
عن هذه الاشتباكات ، لأن شبه الجزيرة ككل تحول إلى ميدان حرب رهيب
يقتتل المرابطين مع النصارى في كل ناحية من نواحيه ، وكانت أعداد المرابطين
كبيرة نوعاً ما ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب اضطراب أمور
دولتهم في إفريقية وإحلال الأندلسيين المسلمين عليهم ، فكانوا يرتدون عن القتاء
في كثير من الأحيان . وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لانقاذ
الأندلس ، ونحدد لنا تاريخها وتصفها لنا وصفاً لا بأس به . ولم يستعد المرابطون
نباثهم في الأندلس إلا في سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر علي بن يوسف بنفسه عبوره
الرابع الأخير لكي يخلص في أمر ممتلكاته الأندلسية بعد أن أشرفت على الضياع .

رسالة*

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل
أبي محمد ابن أبي بكر هزيمة « القلعة » رحمهما الله ^(١)

كتابنا وفقى الله رأيك وحسن هديك ، ولا أُمال عن الهدى والرشد
سعيك ، من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة
ثلاث وعشرين وخمسمائة . وقبله وافى ^(٢) كتابك تذكر فيه الميعة التي كانت
للعدو — دمره الله — عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه ^(٣) ، بعد أن كان لكم
صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر (الأمور) ^(٤) أبداً أو كدُ وأُم ، والعواقب
هي التي تحمد أو تذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أهى وأتم ،
وإن لسان العذر بك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيّع لمطلع بصير :
تواقفتهم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (١٧٢) جمعاً ، وأحرى
أن تكونوا أشد عن حربكم منعاً ، وأقوى دونه دنعاً ، فثبت وزلاتكم ، وجدَّ
ونكلكم ، وشد عقد عزمته وحلاتكم ، وكنتم في تلك الواقعة قرة عين الحاسد
وشمانة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة ^(٥) توليكم بين يديه بشيعة ^(٦)
هائلة ، ودعامتكم لولا انثنائوه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه
من الرجُل ^(٧) الذي أسلمتموه للقتل ، وقررتهم ، ونصبتموهم دريئة للرماح
ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلقتموه

* صفحة ٧١ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الهامش الأيسر من النص : كتاب السكائب الأجل . . . مروان
ابن أبي المصلح [رجب] سنة الله عليه . صح .

(٢) وفي الأصل : وافا .

(٣) إشارة إلى هزيمة « القلعة » التي ذكرناها .

(٤) وردت كلمة « أواخر » في آخر السطر متبوعاً بألفها ، وقد أضفت كلمة « الأمور »

ليستقيم السياق .

(٥) كذا في الأصل ، ولعل مثنى : « قصة » .

(٦) كذا في الأصل .

(٧) هذه الإشارة هامة . إذ من الثابت أن المراكطين تخلوا عن المطوعة وتوكلوا

يسلون منيران المدر وحدهم في بعض المواقع .

من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ،
وأصريت بها ظهوركم وأقفؤكم ، عاقبتكم الله بما أنتم أهل ، فأنتم أشجع الناس
أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريمة ،
ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة ، فتي وأي وقت تفعلون ؟ ولأي شيء
بعد ذلك تصلحون ^(١) ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دفع بفضلله الأهم
الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ،
وقصروا حل اشتراككم ، والبسوا منه ^(٢) جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء
مجازاتنا إياكم جزاء توفونه ويوما عصياً تلقونه ، فكونوا بمد هذه الهناة
لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتألف (ب ٧٢)
على أمر جامع ^(٣) ، فإنكم لو [خلصت غيوبكم] ^(٤) حسنت سريرتكم ،
واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا حدكم ، ولما ذهب ريحكم
ولا أخل ^(٥) جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق
الغزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات .
وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدد يأتيه من خلقه ، والله يقطع به ،
فلتضعوا على مسالكه عيوننا نكلاً ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ،
فإن كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ،
والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، إنه الحميد
المجيد ، لا إله غيره .

(١) هذه العبارة تذكرنا .

(٢) في الهامش : مناء صح .

(٣) هذه الإشارة تدل على أنه حدث في جيش المسلمين شقة قبل هذه الواقعة
أو أثناءها ، والغالب أن يكون هذا الشقة قد وقع بين الأندلسيين والمراطين ، وهذه
ظاهرة تتكرر كثيراً في تاريخ الجهاد في الأندلس ، وقد ظهرت بشكل واضح في عجز
المسلمين عن الاستيلاء على حصن « البيط » وتظهر في أسوأ صورها في هزيمة المسلمين
الكبرى يوم « القباب » في عصر الموحدين .

(٤) يباين في الأصل ، وقد أضيفت هذه العبارة ليستقيم السباق .

(٥) في الأصل : ولا أخل .

الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن علي بن يوسف بعد كتابه السابق بأربعة أيام فحسب ، وهو يتعلق بهزيمة « النلعة » التي دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسف أن الخطاب الذي تشير إليه ، وهو الذي يصف فيه أبو الطاهر تميم ما جرى في يوم « النلعة » قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائد المرابطي أقر بالهزيمة وحاول تبريرها في خطابه إلى أميره ، ولكن علي بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره وئتب إليه يلومه في أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن الهزيمة دارت عليها في نصفه الثاني ، وهذه ظاهرة كثيرة التوارد في مواقع المرابطين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المرابطين كانوا يهجمون بحماس شديد فيزولون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريباً كاملاً فقد كان من الطبيعي أن تكون نسبة قتلهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صفوفهم تتخاقل ولا يستطيعون الثبات في نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها نتائج هامة فيما يتصل بموقف علي بن يوسف من الأندلس واهتمامه بمصيره في ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفيما يتصل كذلك بأسلوب الخطاب الذي كان يجري عليه ديوان الأبناء المرابطين في مخاطبة القواء . وكتب الخطاب هو أبو الخصال ، ونلاحظ أنه بالغ في إهانة المرابطين على عهد الأندلسيين ، في الكتابة عنهم ، وعند عبد الواحد المراكشي خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل بلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب علي بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن « علياً » لم يكن يقرأ هذه الكتب قبل إرسالها . وطبعاً كذلك أنه لم يكن ليفهم هذا الكلف اللغوي الذي كان كتاب الأندلس في ذلك العصر يسرفون فيه .

رسالة

وله إلى المذكورين ^(١) مجاوباً لهم بهزيمة

ابن رذير إياهم في « القلعة » ^(٢)

كتبنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكشفكم بعصمته وجعلكم في حماه
وأسبغ عليكم عوارفه ونعمه ، من حضرة مراکش حرسها الله في الحادي عشر
من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسة ، غب ما وإفاننا
كتابكم الأثير ، مضمناً وصف اليوم الذي جرت به خزية المقادير ، فاستعرضناه
وتقرر لدينا جميع ما حواه ^(٣) ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازه
شأنه علينا ، لكن لا يخرج عن القضاء وحكمه ، ولا يحيد عن القدر وحتمه ،
ولن يرد حول محال ما سبق في علمه ، وما ألونا -- وهو عز وجهه أعدل
الشاهدين -- جدأ وعزماً وكدها لاعلاء كلمة الاسلام ، وحزماً ببذل الأموال
وتخيير الرجال واعتياص الأسلحة والأفراس ، والجميع بين الأيماش والايئناس
في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد
وبلوغ مد () حمة جهاد في كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً
ولم يكن التهذير () صير ^(٤) حاضراً عتيدياً ، والله يخزي كل خائن ماين
بأسخايطه تعالى دايئ جزاه ، ويرديه بُرد مضمسره ورداه ، ويوشك مقارضته
وإرداه بحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين
لأسرعنا بذلك مبادرين (١٧٤) ولما ثننا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

* صفحة ٧٣ ب مخطوط ٤٨٩ .

(١) أهل سرقسط: الذين كتبوا اليه (الوثيقة الثانية) .

(٢) كذا في الأصل ، وهي مينة في « القلعة » . و« القلعة » على مقربة من عرناطة .

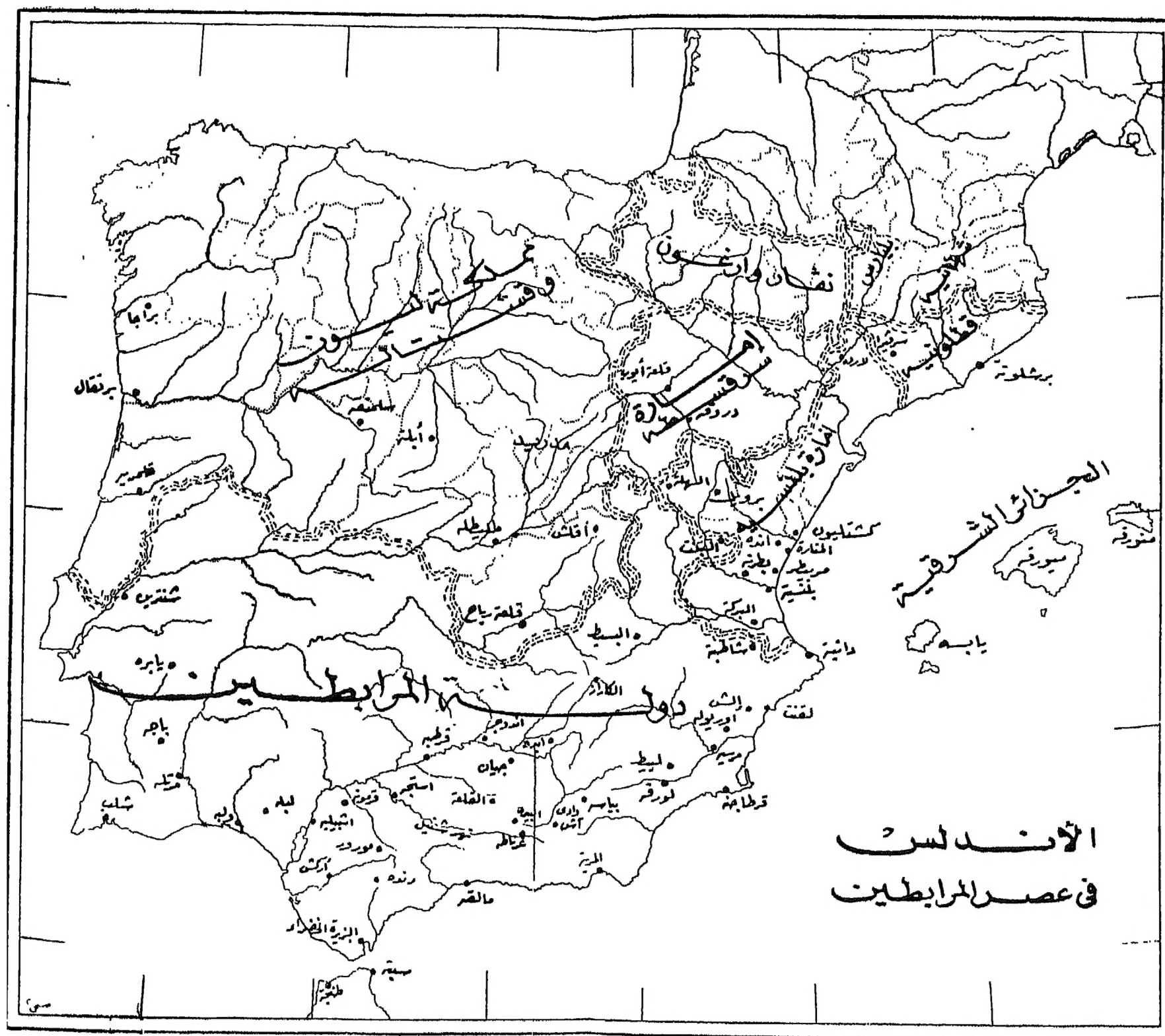
(٣) في الأصل : نواه .

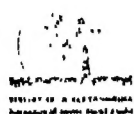
(٤) خرم في المخطوط .

بنا عن معالجة نصركم تراح ولا توان . وقد جددنا الآن أحث^١ نظر ونحو
نردفه بما يكون عليكم أنتم^(١) وأريد وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم
ويسكن مروعكم ، فما لنا والله يشهد هم سوى الذباب عنكم والدفاع ، والانفراد ،
لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر عليه ياتم الاضطلاع ،
والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

(١) في الأصل : ألم

٩٢ / ٧٠٦٤	رقم الإيداع
٩٧٧ - ٥٣٦٥ - ٠٢ - ٣	الترقيم الدولي





General Organization of the Alexan-
dria Library (2000)
Bibliotheca Alexandrina